الفصل الأول

منهج ابن خلدون فى فهم اللغة

يشمل :

١ — الملكة اللسانية فى رأى ابن خلدون

٢ — تفسير ابن خلدون لجوانب من درس اللغة

٣ — ملكة الشعر ولغته فى تصور ابن خلدون

٤ — قرائن الكلام وقوانين الإعراب فى فهم ابن خلدون

الملكة اللسانية في رأي ابن خلدون

يقول ابن خلدون « يظن كثير .. ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم أمر طبيعي ، ويقول : كانت العرب تنطق بالطبع — وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام ، تمكنت ورسخت ، فظهرت في بادىء الرأي أنها جبلة وطبع »(١) .

وهدف هذا الموضوع معرفة تلك « الملكة اللسانية » وعلاقاتها بالنطق الصحيح والدراسة المفيدة كما فهم ذلك كله ابن خلدون — مع مقارنة ذلك بما يقوله علم اللغة الحديث الذي يتفق إلى حد كبير مع ما سبق به العالم العربي العظيم — ثم توظيف هذه الآراء للإجابة عن تساؤلات مهمة حول اللغة ودراستها في وقتنا الحاضر .

يقدم ابن خلدون تصوره لهذه الملكة من ناحيتين : ناحية الألفاظ « المفردة والمركبة » وناحية تمكن الملكة لدى المتكلم مما أطلق عليه « تكرار الأفعال » ويرى أن تمام الملكة اللسانية إنما هو بالنظر إلى التراكيب اللغوية لا بالنظر إلى المفردات ، وهذه التراكيب اللغوية تعبر عن المعاني المقصودة للمتكلم ، فيتحقق بها الإفهام الصحيح ، ويراعى في تأليفها المطابقة لمقتضى الحال ، وهذا — كما يقول — هو معنى البلاغة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤/١٢٧٩ .

وحول "تمكن الملكة للناطق « بتكرار الأفعال » يصور ارتقاء هذا التكرار من الصفة إلى الحال إلى الملكة « لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ، ثم تكرر ، فتكون حالا ، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة ، أى : صفة راسخة »(١) .

هذه النظرة السابقة — بشقيها — لا يقصد بها ابن خلدون اللغة العربية وحدها ، بل هى فكرة عامة تنطبق على كل اللغات ، لأن اللغات إحدى مظاهر المجتمع الإنسانى بل أخطر هذه المظاهر جميعاً ، وهو — فى مقدمته — يتحدث عن مظاهر المجتمع والعمران بفهم عميق لقوانينها وتطورها وعوامل رقيها وفسادها ، مما يكون نظريته الاجتماعية المتكاملة — وهذه النظرة السابقة — بشقيها — عن اللغة إحدى جزئيات هذه النظرية .

فإذا اصطحبنا هذا الفهم إلى ما يقوله علم اللغة الحديث ، وجدنا الآتى :

تتدرج الدراسة اللغوية من علم الأصوات إلى الصرف إلى النحو ، وعلى مستوى النطق من الصوت إلى الكلمة إلى الجملة ، وهذه الأخيرة — الجملة — هى هدف الدراسة اللغوية التى تسبقها ، وهى التى يتحقق بها الفهم والإفهام .

ويقرر المحدثون أيضا أن للغة — أى لغة — مستويات ثلاثة هى (اللغة المفهمة — اللغة الصحيحة — اللغة البليغة)

والمقصود باللغة المفهمة أن تكون أداة للإفهام فى أدنى درجاته ، حيث لايراعى فيها غالبا عرف اللغة المستعملة ومايقرره من نظام فى الأصوات والصيغ والجمل ، وقد أورد « الجاحظ » فى كتابه «البيان والتبيين» نماذج من استعمال هذه

---

(١) السابق ص ١٢٦٨ .

اللغة من أجانب عصره ، حيث كانوا يستعملون اللغة بقصد الإفهام مع التخليط فى نطقهم أصواتا وصيغاً وجملا ، تماما كما يستعمل الأجانب عن اللغة العربية الآن هذه اللغة للإفهام دون مراعاة مستوى الصحة .

أما اللغة الصحيحة فهى فى درجة أعلى من كونها للإفهام ، فلا يتحقق لها هذا الوصف — الصحة — إلا بمراعاة ما يحققها من نظام فى الأصوات والبنية والإعراب .

أما اللغة البليغة فهى التى تحقق مستوى الجمال فى التعبير أو كما يقول « جراى Gray » « استعمال الكلمات استعمالا صحيحا تصور به الظلال الدقيقة للمعانى التى يرغب الكاتب فى إثارتها »

ومن قضايا علم اللغة العام المعروفة (أن اللغة ملك من يتعلمها لا أثر فيها للوراثة أو الجنس) فهناك فرق بين الاستعداد للتكلم والكلام نفسه ، الأول ضروى للإنسان لا يتخلف ، فطبيعى أن يتكلم الإنسان كما هو طبيعى له أن يمشى وأن يتنفس ، وهذا الاستعداد الفطرى لا بد أن يتحقق للإنسان فى صورة كلام فعلى ما لم يوجد طارىء قاهر يمنع تحققه ، وهذا الكلام الفعلى يعتمد على التعليم والتدريب المستمر لاكتساب لغة المجتمع الذى يعيش المرء فيه ، تماما كما يكتسب المظاهر الاجتماعية الأخرى من تقاليد وعادات ، حتى تصبح اللغة بالنسبة له أمراً عادياً لا يكاد يشعر به حين يستعمله .

إن ابن خلدون فى تصوره « للملكة اللسانية » قد سبق — بحق — فهم اللغويين المحدثين لها من حيث اعتمادها على الجملة لا المفردات ، ومن حيث تدرجها من الإفهام إلى الصحة إلى البلاغة ، ومن حيث حصول هذه الملكة من العرف والعادة والمعايشة المستمرة للنطق فى بيئة الفرد اللغوية .

فما كيفية الإفادة من تلك النظرة فى حياتنا اللغوية المعاصرة ؟

ما تزال مستويات اللغة الآن — كما كان الأمر فى عهد ابن خلدون وقبل عهده — مختلفة بين اللهجات التى تعبر عن المعانى الدارجة والحاجات اليومية المتكررة والفصحى الصحيحة التى تعبر عن المواقف العامة والفكر الراقى وأيضا لغة الأدب المشحونة بالأحاسيس والمشاعر التى تعتمد على الصورة والإيحاء والظلال .

ونطق اللهجات فى القرى والمدن لايسبب لنا الآن مشكله ذات بال ، فلاأعلم أن والدى الأمى فى القرية قد عانى — أو يعانى — أى مشكلة فى نطق لهجته ولا يخطر على بال أى فرد فى صعيد مصر أن للهجته قواعدها ونظمها الخاصة التى يمكن أن تحلل وتدرس ، وهكذا الأمر فى لهجات العالم العربى من أقصاه إلى أقصاه فى مصر أو اليمن أو العراق أو المغرب ، فلكل لهجته التى لايخطئها الناطق بها ، ولا تحتاج منه لجهد أو دراسة ، والسبب فى ذلك ما ذكره ابن خلدون عن الملكة الثانية من تكرر سماع اللهجات على الآذان حتى أصبحت صفة راسخة وعادة بدهية ، ينطقها أهلها تلقائيا دون معاناة .

أما اللغة الصحيحة الفصيحة — وبالأولى اللغة البليغة — فهى المشكلة الحقيقية لأن من يجيدون النطق العربى الصحيح بين عوام المثقفين نادر جدا ، بل إنه بين المثقفين المشتغلين بالكلمة قاصر قصوراً شائنا ، ويصل فى بعض الأحيان إلى الفساد البين .

فإذا استرشدنا بنظرة ابن خلدون لمعرفة الداء ، فذلك أمر لا عسر فيه ، لأن الملكة الصحيحة تتكون بسماع اللغة الصحيحة وتكرار هذا السماع ، وبالمثل تقصر هذه الملكة عن الوصول إلى مستوى الصحة ما دام المناخ المحيط بها تسبح

فى أجوائه الأخطاء واللكنة والتواء الألسن وضحالة الثقافة العربية وتغلب اللهجات المحرفة ، كما يساعد عليه الإهمال الشائن والوقوع تحت سيطرة الأساليب الأجنبية الوافدة .

وإذا استرشدنا أيضا بنظرة ابن خلدون فى شأن العـــلاج الناجع ، كان النهج الذى يتبع يسيراً فى خطته ، لكنه فى حاجة إلى جهد شاق فى تنفيذه ! ! وهو فى عبارة واحدة « تعود الملكة اللسانية الصحيحة الجميلة » فكيف يكون ذلك ؟!

لقد وصف ابن خلدون ذلك متفقا مع نظرته الاجتماعية النافذة عن اللغة عامة ومطبقا على اللغة العربية تاريخيا فى مرحلتها المتقدمة ، يقول « فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم فى مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم . . . فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم ، واستعماله يتكرر ، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم(١)

لكن المتعلم العربى الآن — كما كان الأمر فى عهد ابن خلدون — لا يملك هذا المناخ الصافى وهذا المشرب العذب المتاح الميسر ، إن العكس هو الصحيح إذ يحيط به من كل جانب ما يدفعه دفعاً عن صحة اللغة وجمالها اجتماعيا وثقافيا سماعا وقراءة وكتابة ، ولم يعد فى متناول يده ذلك النموذج المثالى الطبع الأصيل الذى يلقنه له المجتمع فيحاكيه ويحتذيه دون تعمد — لذلك كان من الواجب اصطناع هذا المناخ اللغوى اصطناعا ، واتخاذ الوسائل التى توصل إلى إجادة هذه الملكة اللسانية بقدر الإمكان .

---

(١) المقدمة ٤/١٢٦٩ .

ويقدم ابن خلدون رأيه فى هذه الحال الناشئة عن حاجة الملكة للتعلم تعمداً وصناعة بعد أن انتهى العهد الذى كانت تتعلم فيه طبعا وسليقة ، وهذا الرأى الذى يقدمه منسجم تماما مع فهمه ونظرته ، يقول « ووجه التعليم لمن يبتغى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم — العرب — القديم الجارى على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب فى أسجاعهم وأشعارهم ، وكلمات المولدين أيضا فى سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ، ولقن العبارة عن المقاصد منهم — ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عبارتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم ، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال(١) »

أجل .. حفظ كلام العرب ... والتعبير على حسب عبارتهم وتأليف كلماتهم ... فتحصل هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال !!

هذا هو الحل فى رأيه ، وهو حل تثبت الملاحظة صحته ، فأولئك الذين نشأو فى التعليم الدينى الأزهرى أقدر من غيرهم فى ملكة اللسان من خريجى المدارس المدنية ، والسبب فى ذلك يقينا هو حفظ القرآن الكريم والمداومة على تلاوته — ولو درست حياة كبار الشعراء والكتاب كأبى تمام والبارودى والعقاد للبحث عن سر تمكنهم من التعبير الصحيح ، لعرفت أن من أهم أسباب ذلك كثرة ما حفظوه من نصوص الشعر والنثر حين تكوينهم اللغوى فى الصغر والشبيبة — ومن يتصفح كتابا لتراجم الأدباء والعلماء مثل « معجم الأدباء » يتأكد لديه أن معظم هؤلاء — كما تقول تراجمهم — قد قرأوا كثيرا من المنظوم والمنثور قبل

---

(١) المقدمة ٤ / ١٢٧٥ .

أن يتصدوا للكتابة الصحيحة الفصيحة بل استطاع رواة اللغة مثل « حماد الراوية وخلف الأحمر » بإجادة صنعتهم محاكاة الشعراء ونسج الشعر على منوالهم وتزييفه بنسبته لهم ، وهذه قضية عريضة تدرس فى تاريخنا تحت اسم «الانتحال» والمهم فى هذه القضية جانبها اللغوى من دلالتها على أن التمرس بالنصوص الصحيحة واستمرار هذا التمرس يصنع الملكة اللسانية التى يصل بها الأمر حد المطابقة بين الأصل والتقليد ، بين الرواية والدراية ، بين الفطرة والصنعة .

إن الأخذ بهذه الفكرة — فيما أظن — مفيد جداً لتكوين الملكة اللسانية للناطق العربى المعاصر عن طريق العناية بالنصوص واستعمالها بطريقة صحيحة .

وفى بعض البلاد العربية — المملكة السعودية — يأخذون الطلاب فى مراحل التعليم المختلفة بقراءة أجزاء معينة من القرآن الكريم كل عام مع إشراف جاد وحاد على هذه القراءة من علماء متخصصين فى الإقراء والتحفيظ — ولنا أن نتصور مدى الفائدة اللغوية التى يحققها تطبيق هذه التجربة فى العالم العربى — ومعظمه من المسلمين — بقراءة جزء واحد - لا حفظه — فى كل عام دراسى من طلابنا الذين يقضون فى التعليم ما يقرب من خمسة عشر عاما .

ثم يتعرض ابن خلدون لموضوع خطير هو «صلة النحو بهذه الملكة اللسانية» فيقول عن صناعة العربية وقوانين الأعراب « إنما هى معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهى علم بكيفية لا نفس كيفية »

ثم يشرح هذه الفكرة بالتفريق بين الملكة وقوانين الملكة ، بين العلم النظرى والخبرة العملية بالتجربة ، ويقدم تنظيرا لذلك بمن يجيد العلم بصناعة النجارة ولا يمارسها عملا ، فإذا سألته عنها شرحها لك قائلا « أن تضع المنشار على رأس

الخشبة ، وتمسك بطرفه وآخر قبالتك تمسك بالطرف الآخر ، وتتعاقبانه بينكما وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة جائية ، إلى أن ينتهى إلى آخر الخشبة » ويعقب ابن خلدون على ذلك بقوله « وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه ، لم يحكمه » بل إنه ليؤيد رأيه بتمثيل آخر أقرب من واقع القضية نفسها ، بأن كثيرا ممن درسوا النحو وتعمقوا أصوله وفروعه وأفنوا أعمارهم فى البحث عن مسائله ومشاكله ولم يجيدوا هذه الملكة اللسانية لا يستطيعون التعبير اللغوى الصحيح ، بينما كثير من الكتاب والشعراء ممن أجادوا هذه الملكة يعبرون عما يريدون بطلاقة وسلاسة وإن لم يتعمقوا النحو وقضاياه — ولندع ابن خلدون يتكلم « نجد كثيرا من جهابذة النحو والمهرة فى صناعة العربية إذا سئل فى كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك .. وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة العربية »(١)

إن هذه الفكرة المستنيرة التى تنسجم تماما مع نظرته كلها توافقه الدراسات اللغوية الحديثة عليها ، إذ تفرق بين الكلام واللغة ، فالكلام من خواص الفرد ، واللغة من خواص الجماعة ، الكلام نشاط حى فيه جدة الاستعمال وحيويته واللغة نظم مجمدة فى القواميس وكتب النحو والصرف .

والمتكلم حين يستعمل اللغة ، فإنه يلجأ لما يطلق عليه محاكاة النظير Analogy بمعنى أنه يتكلم بناء على ما اختزنه فى ذهنه مما اكتسبه من نظم البيئة اللغوية التى

---

(١) المقدمة ـ ٤/١٢٧٧

يعيش فيها ، أو بعبارة أخرى : إنه لا يتكلم كيفما اتفق ، بل يتكلم بحسب العرف والعادة للغة المجتمع الذى يعيش فيه ، تلك التى اكتسبها بتدريب الملكة اللسانية وتعودها .

وهناك فرق بين ما يعتاده المتكلم من نظم اللغة التى يقيس عليها وما يفعله علماء النحو من وضع القواعد والقوانين ، الأول يحدث دون قصد وتعمد أما الثانى فنية العمد فيه واضحة مقصودة ، الأول يتعوده الشعور حتى يصبح عادة من عاداته كالمشى والطعام ، والآخر مقاييس محددة موضوعة للاكتساب والفهم الأول انعكاس الاستعمال على ناطق اللغة ، والثانى آراء الدارسين المقننة لمن يستعمل اللغة .

والدور الذى تؤديه كتب النحو — فى رأى ابن خلدون — يرتبط بفهمه « للملكة اللسانية » واعتمادها أساساً على النصوص اللغوية ، وبناء على ذلك رحب الرجل « بكتاب سيبويه » لأنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط ، بل فيه كثير من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم ، وهو — بهذه الصفة — يساعد على تكوين الملكة ، ومثله كل كتب النحو التى تعنى بالأمثلة الراقية والنصوص المنتقاة والتمارين اللغوية المفيدة .

أما كتب النحو المتأخرة فكل همها القواعد الجافة والأمثلة المتجمدة والتمارين الذهنية والمجادلات العقيمة والاستطرادات الجانبية ، فالمخالطون لهذه الكتب — كما يقول ابن خلدون — قلما يشعرون بأمر هـــذه الملكة أو يتنبهون لشأنها ، فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة فى لسان العرب وهم أبعد الناس عنه .

لكننى أضيف توضيحاً لكلام ابن خلدون أن النحو هو قوانين الملكة فهو « حارس لها » بعد تحصيلها من النصوص أولا ، إذ الواقع أن كثيراً ممن

يجيدون العربية إجادة تامة يراجعون أحياناً مصادر النحو واللغة حين تتعثر الملكة فى النطق أو تضل الحقيقة الحاسمة عنه ، حينئذ يكون استفتاء قوانين الملكة ... استفتاء النحو .

تحية إلى ابن خلدون الذى يعود إلى الدرس اللغوى الحديث من وراء القرون مهيباً جليلا ، فيدهشنا بفهمه وذكائه ونفاذ بصيرته ، لنفيد الآن من نظرياته وآرائه .

تفسير ابن خلدون لجوانب من درس اللغة

النظرة الأساسية الملتزمة عند ابن خلدون تركزت على ما أسماه «الملكة اللسانية» وما يدور حولها ، وقد قرر أنها ملكة صناعية فى اللسان للعبارة عن المعانى إذ يعتادها بالتكرار وتوالى التكرار حتى تصير صفة راسخة ، يصدر عنها ما يعبر اللسان عنه دون مشقة أو عناء .

ومن هذا المنطلق العلمى المحدد كتب ابن خلدون ما يقرب من مائة صفحة فى «المقدمة»(١) شرح فيها الملكة شرحا ضافيا بخبرة عالم الاجتماع النافذ النظر ، وعرض أثناء ذلك لجوانب متعددة تتعلق بها من درس اللغة ، فقدمها منسجمة تماما مع نظرته الاجتماعية فى فهم هذه الملكة .

ومن القضايا المهمة التى جاء ذكرها فى رأيه وقدم لها الحل من نظرته :

(ا) الفطرة والتعلم فى اكتساب اللغة

(ب) كتب النحو بين خدمة اللغة وصنعة الجدل

(ج) تحصيل اللسان العربى للعرب والأعاجم

وفكرة هذا البحث هى بيان النهج العلمى الموحد المقنع الذى استطاع به العالم العربى العظيم حل هذه القضايا ، فقرت فى مكانها حول نظرته الكلية عن «الملكة اللسانية» دون نبوّ أو نشاز .

---

(١) الجزء الرابع ص ١٢٥٠ وما بعدها (تحقيق : وافى)

الفطرة والتعلم فى اكتساب اللغة

أجرى علماء اللغة العرب المحدثون حواراً جاداً وحاداً مع آراء علماء اللغة العرب الأقدمين حول الطبع والتعلم فى نطق العرب للغة .

ومن رأى المحدثين أن العلماء العرب قد فهموا أن نطق العرب — والأعراب بصفة خاصة — فى عصر الاستشهاد للغة الصحيحة الفصيحة كان سليقة لهم وطبعا ملازما وفطرة فطرهم الله عليها فكأنما ولدوا وهى تجرى فى أعراقهم ، شأنها شأن سحنهم وطبائعهم .

ويقدم المحدثون دليلا لذلك أن أصحاب المعاجم العربية فسروا الكلمات (سليقة — خليقة — طبيعة) بمعنى واحد فى نطق اللغة .

جاء فى أساس البلاغة : يقال : الكرم سليقته والسخاء خليقته ، وهو يتكلم بالسليقة .

وجاء فى القاموس : السليقة — كسفينة — الطبيعة ، ويتكلم بالسليقة ، أى : عن طبعه لا عن تعلم . انتهى .

فالكلمات الثلاث تفسر كل منها الأخرى ، فهى بمعنى واحد فى إطلاقها على نطق الشعراء والأعراب الفصحاء .

كما يسوقون بعض الروايات التى تؤكد هذا الطبع وتلك الفطرة فى نطق الأعراب ، ومنها :

• أورد الجاحظ الخبر التالى قال : روى عن رجل من بنى منقر أنه قال : تكلم خالد بن صفوان فى صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، فإذا أعرابى فى بتّ ما فى رجليه حذاء ، فأجابه بكلام وددت الله أنى كنت مت وأن ذلك لم يكن ، فلما رأى خالد ما نزل بى ، قال : يا أخا منقر ، كيف نجاريهم وإنما نحكيهم !!

وكيف نسابقهم وإنما نجرى على ما سبق إلينا من أعراقهم(١) !!

ويرى المحدثون أن هذه النظرة غير صحيحة ، وأن اللغة اكتساب وعرف ، وأن هناك فرقا بين الاستعداد للتكلم والكلام نفسه ، والأول هو الذى يصح أن يطلق عليه « الخليقة والفطرة » وأما الثانى فيكتسبه الإنسان من المجتمع الذى يعيش فيه كما يكتسب كل المظاهر الاجتماعية الأخرى(٢).

ويرتب المحدثون على ذلك أن هذه النظرة للعرب قد انزلقت بعلماء اللغة الأقدمين إلى أخطاء ومحظورات فى دراسة اللغة ، أبرزها « الثقة المطلقة » بكل نطق عربى سمع وإن كان غير أهل للثقة والتوثيق — ومظاهر ذلك كثيرة ليس هنا مجال ذكرها .

وابن خلدون يفهم « الطبع والصنعة » فهما خاصا لا يتفق مع مانسبه المحدثون لعلماء اللغة العرب فى فهم « الخليقة والفطرة » كما أنه لا يتفق تماما مع فهم المحدثين من إطلاق معنى « الاكتساب والعرف » إن فهمه لهذه القضية يدور فى إطار فهمه « للملكة اللسانية » التى تحصل — كما يقول — من تكرار الأفعال التى تحدث الصفة ثم الحال ثم الملكة .

فتكون « الملكة اللسانية » — فى رأيه — يتم بهذه الطريقة سواء أكان ذلك فى عصر الاستشهاد أو بعد هذا العصر ، ومادامت الظروف مهيأة لاكتساب تلك الملكة وحدوث مراحلها الثلاث ، فإن النتيجة المؤكدة حدوث تلك الملكة فى اللسان والتعبير بها عن المعانى .

وتفريقه بين « الطبع والصنعة » يعود لتلك الظروف التى تتحقق بها الملكة

---

(١) البيان والتبيين ١/١٧٣ .
(٢) انظر : من أسرار اللغة ص ١٩ وما بعدها .

والمناخ الذى تحدث فيه ، فإذا كانت تلك الظروف موجودة تلقائيا ، فإن تلقين اللغة يجىء بصورة عفوية ، فيتمكن منها الناطق دون قصد لتعلمها ، فيستعملها كما يستعملها كل الناس من حوله ، وهذا هو المقصود من «الطبع» الذى ينسب للفصحاء من العرب، إذ تعلموا اللغة من الجيل الذى عاشوا فيه — وكان فصيحا — وأجادوها من السماع الصحيح ممن حولهم — وكان النطق صحيحا — فتحدثوا هم أيضا بطريقة فصيحة صحيحة دون تعليم من أحد .

يقول ابن خلدون : فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم فى مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبى استعمال المفردات فى معانيها ، فيلقنها أولا ، ثم يسمع التراكيب بعد ، فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال سماعهم لذلك يحدث فى كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر ، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم — هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل ، وتعلمها العجم والأطفال ، وهذا هو معنى ما تقوله العامة من **أن اللغة للعرب بالطبع** .

ومع تأخر الزمان بالعرب اختلطت بهم أجناس أخرى ، وترتب على ذلك أن وسيلة السماع التى تكون الملكة أصبحت هى الأخرى مختلطة ، إذ يسمع الناشىء كيفيات عربية صحيحة وكيفيات أخرى غير صحيحة من غير العرب فاختلط الأمر ، وهذا — كما يقول — معنى فساد اللسان العربى ، وهنا يأتى دور « الصنعة والتعليم » والمقصود به تحصيل الملكة بطريقة صناعية لا عفوية ، طريقة التلقين المتعمد للنصوص العربية شعرا ونثرا حتى تتكون الملكة بهذا الحفظ والاستعمال .

يقول ابن خلدون : وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع نظما ونثرا **وهكذا ينبغى أن يكون تعلمها** .

إن فهم ابن خلدون « للطبع والصنعة » لا يتجه إلى ما فهمه المحدثون منهما فاللغة كلها « اكتساب » بل اتجه لما هو أدق وأعمق ببيان « كيفية الاكتساب » الذى يحدث « الملكة » مما يلخصه الآتى :

• اللغة للعرب بالطبع : أى بالملكة الأولى التى أخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم .

• اللغة للعرب بالصنعة : أى بالملكة التى تحدث بكثرة المحفوظ شعرا ونثرا وجودة الاستعمال .

فالمحدثون من اللغويين العرب فهموا «الاكتساب» على أنه مرادف « للتعلم » ومقابل « للخليقة والفطرة » وراحوا يجادلون اللغويين العرب على أساس هذا الفهم .

أما ابن خلدون فقد فهم « الاكتساب » على أنه مرادف لحدوث « الملكة اللسانية » وبناء على ذلك فرق فى حدوثها بين « الطبع والتعلم » كما سبق بيانه .

كتب النحو بين خدمة اللغة وصنعة الجدل

(النحو للكلام كالملح للطعام) عبارة لا يدرى قائلها تتردد بين المشتغلين بهذا العلم ، إن النحو ليس هو الكلام ، لكنه ضرورى لإصلاحه وتقبله تماما كما أن الملح ليس هو الطعام نفسه ، لكنه ضرورى لاستكمال إجادة طهيه وتذوقه وإساغته ، لكن الملح إذا زاد عن القدر المطلوب بحته الطبيعة البشرية فى ذاته ، وعافت الطعام الذى خالطه أيضا ، والنحو أيضا — مع افتراض قبول العبارة السابقة — إذا استخدم فى اللغة بقدر حاجتها منه وفائدته لها كان مقبولا مساغا ، أما إذا جاوز الحاجة والفائدة إلى الإكثار والتزيد دون حاجة ، فإنه

حينئذ يكون عبئا فى ذاته حيث يصعب فهمه واستيعابه ، وربما أدى الأمر إلى ذود الناس عن الإقبال على تعلم اللغة نفسها ، بله النفره منها ، إذ أن كثيرا من عوام المثقفين فى العالم العربى الآن يمزجون بين النحو واللغة ويعتبرونهما شيئا واحدا لايصح أحدهما بدون الآخر، فليس النحو فى فهم هؤلاء وسيلة للغة ، بل هو اللغة نفسها ، ومادام تفهمه واستيعابه تقف دونهما العوائق العلمية التى تنقلب إلى عوائق نفسية وذهنية ، فإن جريرة ذلك كله تقع على اللغة العربية نفسها ، فتوصف بالصعوبة والتخلف والتعقيد .

قضية مثيرة خطيرة ولاشك ، هى البحث عما فى النحو العربى من نافع يجب علمه ، ومن غير نافع لا يضر جهله ، جسدها « ابن مضاء القرطبى » قديما بقوله :

• ومثل هذا المكتوب ـ الرد على النحاة ـ وكتب النحويين كمثل رجال ذوى أموال عندهم الياقوت الرائق والزبرجد الفائق والذهب الإبريز والورق التى برزت فى الخلوص كل التبريز ، وقد خالطها من الزجاج الذى صفى حتى ظن زبرجدا والنحاس الذى عولج حتى حسب عسجدا ما هو أبهى منظرا وأعظم فى مرأى العين خطرا وأكثر عدة وأجد جدة ، حتى صاروا بها ألهج ، وظنوا أنهم إليها أحوج (١) .

وقد درس اللغويون العرب المحدثون هذه القضية بعمق واستقصاء ، فدلوا على ماحواه النحو العربى من الضنفين ، ودللوا على ما ارتأوه بما أتاحته لهم ثقافتهم اللغوية الحديثة من فهم جديد لقضايا النحو .

---

(١) الرد على النحاة ص ٨١ .

(٢) راجع فى ذلك : اللغة بين المعارية والوصفية — وأصول النحو العربى.

فماذا يقول ابن خلدون عن هذا الموضوع !!

إنه — بناء على نظرته للملكة اللسانية التى تكونها ممارسة النصوص — يرفض ابتداء أن يكون للنحو صلة بالكلام ، ويقرر ذلك تقريراً حاسما بقوله « فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هى غير صناعة العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة » وقدم قبل ذلك أساس هذا الرفض بقوله « وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة فى نفسها ، فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية ، وليس هو نفس كيفية »

فهو منطق تماما مع نفسه ومع نظرته ، فالنحو — فى رأيه — ليس هو الكلام ، والكلام هو الذى يكون الملكة ، وما دام الأمر كذلك ، فلا علاقة له بتلك الملكة وليس ضروريا لها ، وفى ظنى أن ابن خلدون لو استمع للعبارة الذائعة الصيت التى بدأ بها الحديث عن هذا الموضوع (النحو للكلام كالملح للطعام) لرفضها كلية دون نقاش ، أو لناقشها بما سبق آنفاً بما يؤدى أيضا إلى رفضها .

لكن ابن خلدون تحدث عن كتب النحو التى حوت ما أسماه أحيانا « قوانين الإعراب » وأحيانا أخرى « صناعة الإعراب » وهو فى حديثه ذاك لم يناقش ما حوته من تلك القوانين أو هذه الصناعة ، لبيان فائدتها أو عدم جدواها كما فعل ابن مضاء قديما وعلماء اللغة العرب المحدثون حديثاً ، فإنها — كما قرر بكل الجرأة والصراحة — لا علاقة لها بملكة اللسان .

وفى تقييم ابن خلدون لتلك الكتب راح يبحث عما يخدم قضيته هو — قضية الملكة — تلك التى ترتبط بالنصوص وإجادتها بعادة الحفظ وكثرة الاستعمال ، ولذلك فإن كتب النحو من حيث علاقتها بهذه الفكرة صنفان :

الأول : ما يخدم اللغة ويفيد الملكة ، وهو ما يحوى نصوصا كثيرة من كلام العرب ، من الأمثال والشواهد والأشعار ، فيستقر فى محفوظ الدارس والمتعلم ، ويتنبه به لشأن الملكة ، ويرى أن ذلك يتحقق فى « كتاب سيبويه » بشرط أن يهتم دارسه بصورة أساسية بما فيه من نصوص ، أما من يغفل عن التفطن لذلك فيحصل — كما يقول — على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة .

الثانى : ما لا يخدم اللغة ولا يفيد الملكة ، وذلك كتب النحو المتأخرة التى وجهت كل همها وسدمها لصنعة الإعراب وحدها ، فهى محشوة بالتشقيق والتفريع والجدل العقيم ، وهى فى الوقت نفسه عارية عن كلام العرب شعرا ونثرا ، فدارسو هذه الكتب - كما يقول — يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة فى لسان العرب وهم أبعد الناس عنه .

وبعد أن يطبق الرجل نظرته على كتب النحو فى الأندلس والمغرب وأفريقية يقلب يديه فى أسف ليقول :

« فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحى اللسان وملكته ، وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث فى شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المران فى ذلك للمتعلم ، فهو أحسن ما تفيده الملكة فى اللسان ، وتلك القوانين إنما هى وسائل للتعليم ، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علما بحتا ، وبعدوا عن ثمرتها »

أخيراً : فإن خلاصة الموقف تجاه ما فى كتب النحو أن الداعين للتجديد قديما وحديثا نظروا فيما حوته من « قوانين النحو » لمعرفة ما يخدم منها اللغة وما يخدم منها المنطق والجدل ودارت جهودهم فى هذا الإطار وحده .

أما ابن خلدون فلا شأن له بهذه القوانين ، فهى — فى رأيه — لا تنفع

ملكة اللسان ولا تضرها ، وأن ما يخدم اللغه منها هو ما يحوى جملة كبيرة من النصوص التى تساعد على تكوين الملكة ، أما ما فى هذه الكتب مما أسماه « قوانين المنطق العقلية والعلم البحت والجدل » فهى أمور بعيدة كل البعد عن مناحى اللسان وملكته .

هذه نظرة عالمنا العبقرى لكتب النحو ، فهلا توقف عندها المشتغلون به الآن - سلفيين ومجددين ، دارسين ومدرسين — لمراجعة أنفسهم فى جدوى ما يشقون به عليها فى « صنعة الإعراب وجدله » ثم ما يحصلون عليه بعد ذلك من جنى مر وثمر قليل !! — إن أضعف الإيمان — فى رأيى — هو الإفادة من هذا الرأى لتوجيه الاهتمام فى كتب النحو للعناية فيها بالنصوص الراقية الأصيلة والأمثلة المتطورة الجميلة .

تحصيل اللسان العربى للعرب والأعاجم

يحدد صاحب القاموس « الاعاجم » بقوله : والعجم بالضم وبالتحريك خلاف العرب ، و « الأعجم » من لا يفصح كالأعجمى ، والعجمى : من جنسه العجم وإن أفصح .

ويدل هذا التحديد على عنصرين يتعلقان بالأعاجم هما « النسب واللغة » فهم — كما قال — خلاف العرب سواء أكانوا أجانب تماما أم كانوا مختلطى النسب ممن اشتهروا فى تاريخنا اللغوى باسم « المولدون » وهم ما أطلق عليهم الجاحظ اسم « النابتة » — ومن حيث اللغة ، فإنهم — كما قال - لا يفصحون بالمرة ، لأن لهم لغة أخرى غير العربية أو يفصحون لكن أنسابهم غير صريحة فى العرب .

ويمكن أن يفهم من هذا التحديد — بصورة عامة — أن الأعاجم صنفان :

صنف أجنبى تماما عن العرب فى نسبه ولا يعرف العربية ، فهو « لا يفصح »

وصنف آخر مولد أو ناشئة وهو يتكلم العربية ، فهو أيضا « عجمى وإن أفصح »

وهذان الصنفان قد وجدا بين العرب على مدى العصور حتى العصر الذى نعيش فيه .

ولقد كان لعلماء اللغة العرب الأقدمين موقف من كلا الصنفين لا يوافقهم عليه تماما علماء اللغة العربية المحدثون بكل أبعاده .

ويتلخص هذا الموقف للأقدمين فى أنهم ربطوا بين « اللغة والعنصر » ربطا قويا ، فاللغة للعربى الصريح النسب أو « القح » — كما يسمونه — لغة أصيلة نقية موثوق بها ، أما الأجنبى تماما عن العرب أو المولد ، فلغته مصنوعة مخاطة غير أهل للثقة — هذا المعنى السابق ملحوظ جيدا فى القرن الأول الهجرى الذى حدثت فيه نشأة النحو ، وكثير من الروايات التى سبقت عن هذه النشأة تدل على مدى ما كان للأجانب من دور فى تلك النشأة ، إذ كان بين العرب كثير منهم لم ينشأوا على العرف العربى فحدث منهم التحريف فى نطق الأصوات واللكنة فى نطق الحروف والتخليط فى نطق الجمل وشكل أواخر الكلمات مما أطلق عليه اسم « اللحن »

ثم جاء الاختلاط الاجتماعى الهائل فى القرن الثانى الهجرى بين « الأعاجم والعرب » ففى بداية العصر العباسى الأول — وعلى امتداده — كثر الأعاجم بين العرب وخالطوهم فى الأمصار والحضر ومواطن الخصب بحكم عوامل اجتماعية وسياسية لا قبل لأحد بدفعها ، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم « المولدون » وقد انصرف علماء اللغة عن الأخذ منهم بالرحلات للبادية للبحث عن العرب الخلص ونطقهم ، واختاروا منها مواطن الفصاحة مما أطلق عليه بين الدارسين « قبائل الاستشهاد »

* من كلام الجاحظ : إن المولد لا يؤمن عليه الخطأ ، إذ كان دخيلا فى ذلك الأمر ، وليس كالأعرابى الذى إنما يحكى الموجود الظاهر له الذى عليه نشأ وبمعرفته غذى(١) .

أما علماء اللغة العرب المحدثون فإنهم يرفضون هذا الموقف فى الربط بين « العنصر واللغة » فاللغة لا علاقة لها بالعنصر ، بل بالاكتساب والعرف والنشأة والمربى(٢) .

لكن .. كان لابن خلدون موقف آخر ، أساسه قصور الأعاجم عن تحصيل « الملكة اللسانية » ومؤداه تأييد علمائنا الأقدمين فى موقفهم من كل من الأعاجم والعرب نظراً وممارسة فى الاستشهاد والاحتجاج .

ويقيم ابن خلدون نظرته تلك على الأسس التالية :

اولا : أن الأعاجم الداخلين فى اللسان العربى وكانت لهم لغة أخرى وهم مضطرون للنطق بالعربية من مفرد ومركب يحصلون العربية ممن يخالطونهم من العرب وهؤلاء لا يملكون — حين تأخر الزمن — ملكة اللسان المطلوبة ، فقد ذهبت عنهم وبعدوا عنها ، فليس لديهم وسائل إجادة العربية ممن يخالطونهم من العرب .

ثانيا : إذا لجأ هؤلاء الداخلون فى اللسان العربى إلى تحصيل الملكة مما أسماه «القوانين المسطرة فى الكتب » فإنهم لا يحصلون على إجادة اللسان ، بل يحصلون على أحكامه فقط .

---

(١) الحيوان ٤/١٨٣ .

(٢) انظر : الرواية والاستشهاد باللغة ص ١٧٥ و ٢٧٤ .

وفى كلتا الحالتين السابقتين يبقى هؤلاء الأجانب خارج دائرة اللسان العربى الفصيح الصحيح ،

ثالثا : إذا لجأ هؤلاء الأعاجم لتحصيل الملكة بالتعلم من كلام العرب شعراً ونثراً ، فانهم يحصلون على هذه الملكة ، لكنها — كما يقول — تجىء ناقصة أو مخدوشة ؛ لأنه قد سبق لهم ملكة أخرى للغاتهم الأصلية ، وهذه تعوق تمام الملكة الجديدة ، فيفترقون فى ذلك عن العرب الأصلاء .

رابعا : وليتكلم ابن خلدون بنفسه : إن فرضنا عجميا فى النسب سلم من مخالطة اللسان العجمى بالكلية ، وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمدارسة ، فربما يحصل له ذلك ، لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر .

فالوسائل المتاحة للأعاجم — والحديث هنا عن الأجانب تماما — لا تحصل بها الملكة التامة ، فإذا حصلت ، فإنها تكون ناقصة مخدوشة لمن سبقت له ملكة فى لغة أخرى ، ثم يحاول تعلم العربية من النصوص ، أما من لم يسبق له فإنه قد يحصلها تامة، لكن ذلك أمر نادر الحدوث — فإذا نقلت هذه الصورة بكل أبعادها لمن عاصروا علماء اللغة العرب الأقدمين من « الأعاجم » وقت دراسة اللغة والاستشهاد بها ، كان لهؤلاء العلماء كل الحق أن يتجنبوا الأخذ بلغة هؤلاء لدرسها والاستشهاد بها على قواعد العربية .

أما من أطلقوا عليهم اسم « المولدين » فإن العصر الذى كثر فيه جمعهم فى الحواضر — منتصف القرن الثانى الهجرى — لا يختلف الأمر فيه بالنسبة لهم عن هذه الصورة نفسها التى قدمها ابن خلدون للأجانب تماما عن اللغة ، فالوسائل هى نفس الوسائل والنتائج هى نفس النتائج .

لذلك : كان لعلماء اللغة العرب الحق أيضا أخذا بالتحرز والاحتياط وسدا للذرائع أن يديروا ظهورهم لهؤلاء المولدين ، تماما كما أداروها للأجانب الخلص

ورحلوا إلى البادية متحملين مشقة السفر وشظف العيش ومرارة البعد عن الأهل والديار ، ليحصلوا على لغة العرب النقية الخالصة من تخليطات الأعاجم ورطانتهم ولحنهم .

وقد أشار ابن خلدون إلى موافقته على هذا المسلك اللغوى المفيد لعلمائنا الأقدمين بقوله :

« لهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وبنى تميم — وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم — وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية .

ورحم الله ابن خلدون ، فقد هدانا بعقله الكبير المستنير على سبيل الإنصاف والتقدير لعلمائنا الأقدمين فى موقفهم المتحرز المحتاط من مادة اللغة ، ليحصلوا منها على ما يتحقق فيه الأصالة والنقاء ، وقد تحملوا فى ذلك المشقة والعناء .

المراجع كما وردت فى البحث

١ — مقدمة ابن خلدون — الجزء الرابع	ابن خلدون
٢ — البيان والتبيين — الجزء الأول	الجاحظ
٣ — من أسرار اللغة	د. ابراهيم أنيس
٤ — الرد على النحاة	ابن مضاء القرطبى
٥ — اللغة بين المعيارية والوصفية	د. تمام حسان
٦ — أصول النحو العربى	د. محمد عيد
٧ — الحيوان — الجزء الرابع	الجاحظ
٨ — الرواية والاستشهاد باللغة	د. محمد عيد

ملكة الشعر ولغته في تصور ابن خلدون

(١)

يقول ابن خلدون « الملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر » ويوضح ذلك بقوله « اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطا ، أولها الحفظ من جنسه ، أى : من جنس شعر العرب حتى تنشأ فى النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير المحفوظ من الحر النقى الكثير الأساليب ... ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم ، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ(١) »

ويفهم من هذا النص السابق أن ابن خلدون يعتبر الشعر « ملكة صناعية » ويصف الكيفية التى تحصل بها هذه الملكة ، أو بعبارة أخرى : تصنع بها هذه الملكة ، والطريقة — فى رأيه — تبدأ باختيار ما يحفظ من شعر العرب ، ثم حفظه — وبكثرة الحفظ تنشأ الملكة التى شبهها بالمنوال الذى ينسج عليه — ثم يقبل بعد على النظم ، وبممارسته وتوالى هذه الممارسة تستحكم الملكة وترسخ .

هكذا يتصور الرجل الاستعداد لقول الشعر، عمل مكتسب من بدايته إلى نهايته قوامه الاختيار فالحفظ فالملكة فالممارسة فالتمكن ، وهكذا يمضى مع فهمه للملكة إلى نهاية الشوط ، إذ طبق فهمه لها بنجاح وتوفيق فى تحصيل اللغة على مستوى الصحة وعلى مستوى البلاغة ، وهنا أيضا فى الشعر يلتزم نظرته نفسها ، باعتبار

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩٦ .

الشعر ملكة صناعية تتعلم بالتعود والتكرار وتوالى التكرار ، لتحدث الصفة ثم الحال ثم الملكة — كما هو كل منهجه .

لكن .. هناك جانب مهم فى قول الشعر يعز احتواؤه فى نظرة ابن خلدون وصناعته ، لأنه خارج عن الصنعة والاكتساب ، ولا يمكن حده فى إطار هذا الطريق المرسوم ، هذا الجانب هو « موهبة الشعر » ذلك الإشعاع الإلهى — غير المنظور وغير المصنوع — الذى يهجس فى أعماق الشاعر بما يقول ، ويطلعه على عوالم غريبة من السحر والصور والظلال والألوان لا يراها غيره ، هو وحده بحساسيته ورهافته وشفافيته يمكنه السيطرة على تلك العوالم الباهرة وتقييدها فى الأوزان والصور ، ثم إطلاقها غناء جميلا عذبا نسميه « الشعر »

لو كان الأمر فقط كما حسب ابن خلدون ، لصح أن كل رواة الشعر فى القديم — ومعظمهم كانوا يحفظونه — يعدون من الشعراء ، ولكان الطريق للشعر ممكنا لدى كل من يريده ، فما عليه إلا أن يعكف على دواوين الشعراء ينتقى منها جملة صالحة يحفظها حفظا ، وبعدها يقرض الشعر ، وسيجده طوع يديه وملكته !!

لكن واقع الأمر لا يصدق ذلك ، كما لا تصدقه الملاحظة الموضوعية فى تاريخنا الأدبى القديم والحديث ، فما كل من روى الشعر وحفظه صار شاعراً وقديما فرق الأقدمون بين رواية الشعر ودرايته ، بين حفظه وإجادته ، بين تعلمه وموهبته — فلنطالع هذه الروايات الدالة :

● قال الوليد بن يزيد الأموى يوما لحماد الراوية : كم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟! قال : كثير !! ولكن أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام — ويقال : إنه قد فعل (١) .

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٤٨ .

• عن المازنى قال : قلت للأصمعى : إنك لتحفظ من الرجز ما لا يحفظه أحد !! فقال : إنه كان همنا وسدمنا(١) (سدمنا : حرصنا الشديد)

• ويقول القفطى عن محمد بن القاسم الانبارى : كان يحفظ — فيما ذكر — ثلاثمائة ألف بيت من الشعر شاهدة فى القرآن ، وكان يملى من حفظه لا من كتاب (٢)

ودلالة هذه الروايات الثلاث فيما نحن بصدده أن هؤلاء الثلاثة — حمادا والأصمعى والانبارى — لم يشتهروا فى تاريخنا الأدبى بأنهم شعراء مجيدون أو غير مجيدين من هذا المحفوظ الضخم من شعر العرب — قصيده ورجزه — وقصاره ما وصل إليه حماد أنه استطاع محاكاة بعض الشعراء الأقدمين فى قصائد غير محددة وغير مميزة خلط فى نسبتها إلى بعض الشعراء وإفساد نسبة الشعر بها ، لكنه لم يكن ذا شاعرية مستقلة لها تميزها الفنى وطعمها الخاص ، ولم يغنه محفوظه الكثير من الشعر شيئا كما لم يغن غيره من الرواة .

إن الشاعر الذى يستحق هذا الاسم هو من امتلك بالفطرة والخليقة موهبة الشعر وقوامها الرهافة الموسيقية والإحساس العميق بجوهر الناس والأشياء مع المقدرة على النفاذ إليها ، وأن يكون له عالمه الخاص الذى تموج فيه الرؤى والتصورات .

ثم لا بد له مع ذلك من جانب الاكتساب ، بمعرفته الواسعة العميقة بثقافة عصره وسلوك بيئته ، وما يحدث فى هذا العصر وتلك البيئة من تجارب وأحداث وأيضا الاكتساب اللغوى الذى يساعده على إجادة فنه الشعرى وقوة نسجه

---

(١) مراتب النحويين ص ٥٧ .

(٢) إنباه الرواة ج ٣ ص ٢٠٢ .

ووفرة مادته من الألفاظ والأساليب — وهذا الجانب الأخير هو الذى اهتم به ابن خلدون .

فحديثه عن « ملكة الشعر » هو فى واقع الأمر حديث عن اكتساب المهارة اللسانية لقول الشعر، وأدار حول هذا الجانب اللغوى وحده كل آرائه ، وأغفل جوانب أخرى خطيرة لازمة للشعر والشاعر وهى : الموهبة والوعى .

ويبدو أن الرجل اعتقد أن ما ذكره عن اكتساب « ملكة الشعر » بالحفظ كاف فى صنع الشاعر المجيد ، وساعده على هذا الفهم نظرته كلها عن « الملكة اللسانية » وظن أن تطبيقها ممكن على الشعر كما انطبقت على مجرد الكلام الصحيح أو البليغ ، لكن الشعر له جوانب أخرى — كما سبق القول — تسبق النطق وتخلقه وتوجهه ، وقد أغفل تلك الجوانب فدارت آراؤه حول الجانب اللغوى وحده ، وهو الذى سنعرض فهمه له وعناصر هذا الفهم فى مستويين .

١ — تصويره لملكة الشعر وتحديده له .

٢ — مجموعة من الآراء التى بنيت على فهمه للشعر وملكته .

(٢)

هناك ما يطلق عليه ابن خلدون « سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة » ويقصد به الوصف العملى لأسلوب الشعر عند الشعراء — أهل هذه الصناعة — أو بعبارة أوضح : الطريقة الصناعية التى ينسبك بها الأسلوب ويسك فى ذهن الشاعر ، ليخرج عملة شعرية صالحة للتعامل فى دنيا الشعر .

فى شرح هذه الفكرة فى « المقدمة » تتردد مصطلحات أربعة هى (أصل المعنى — كمال المعنى — الوزن — الصورة الذهنية)

والمقصود من « أصل المعنى » الدلالة العرفية الصحيحة للغة وما تقتضيه من معان صحيحة للكلمات ونطق صحيح للكلام من حيث تأليفه وإعرابه .

وأما « كمال المعنى » فهو خواص الكلام البلاغية ومطابقتها لمقتضى الحال و « الوزن » معروف جيداً ، بالتزام الشعر البحور والقوافى كى تصح موسيقاه ويعلق ابن خلدون على هذه الثلاثة بقوله « فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية » ثم يحدد مقصده من «خروجها» بأنها ليست هى هذه الصناعة، لكنها شرط فيها لا تتم بدونها ، فهى إذن مما يطلق عليه فى دراسة اللغة الآن من « العوامل ذات الصلة »

أما المصطلح الرابع « الصورة الذهنية » فهو الذى بنى عليه صنعة الملكة الشعرية كاملة .

وإذا صح أننى فهمت كلامه — سأذكره بنصه بعد — فإنه يقصد أن هذه «الصورة الذهنية» تخيل ذهنى منظم متكامل الخطوط والحدود لكل فن من فنون الشعر ، يحدثه التأمل الطويل للشعر الذى قالهالشعراء عنه من قبل ، انها — كما قال هو — قالب يرص الكلام فيه أو منوال ينسج عليه ، يتحقق به الوفاء بصنعة هذا الفن كما مارسها فرسانه من شعراء العرب من قبل .

ولتقريب الموضوع — إن لم يجانبنى الصواب فى فهمه — أن هذه الصورة الذهنية للشعر تماثل التخطيط الذى يضعه « مهندس المعمار » لبناء البيت على النمط العربى أو الرومانى أو المملوكى أو الأوروبى ، فهوتخطيط متصور مقدورالحدود والأبعاد ، وأساس ذلك كله هو المبانى الفعلية التى نفذت من قبل ، أخذت منها الصورة الذهنية المتكاملة المحدودة التى تخطط على الورق ، ثم تنفذ فى واقع الحياة .

فليتحدث ابن خلدون بنفسه :

« يرجع — سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة — إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب — باعتبار الإعراب والبيان — فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء فى القالب أو النساج فى المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه(١) .

فقد استحال الأسلوب الشعرى إذن إلى صورة ذهنية وانتزاع من التراكيب وقالب يرص فيه الكلام ومنوال ينسج عليه — وكلها لوازم صنعة الملكة الشعرية !! والملكات كلها — فى رأيه — صناعة ، وما بهذا الجفاف — بل الجفاء — وقصان الحديد والحسم الذهنى الحاد الشامل يفهم أسلوب الشعر ، وأين هذا العموم والشمول والتحديد الذهنى من العبارة التى تقول « الرجل الأسلوب » والشاعر رجل متميز ، فهو أيضا « الأسلوب » فلكل شاعر تميزه وطعمه الخاص الذى ينعكس على أسلوبه الشعرى ، وبحثنا عن أسلوبه يجب أن يبدأ به هو ، بمقدرته وموهبته ومزاجه ومذاقه وشخصيته ، ومن ذلك وبه — قبل أى شىء آخر — يتحدد أسلوبه وطريقته وقيمته فى عصره وفنه .

إن ابن خلدون — كما سبق القول — منطق مع نفسه فى نظرته لصنعة الملكة وتطبيقها على أسلوب الشعر وتصوره ، لكنه لم يكن منطقيا مع الشعر نفسه .

فلنتقدم خطوه أخرى لنقف أمام تعريف ابن خلدون للشعر .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢٩١/٤ .

درجت كتب العروض والأدب واللغة على تحديد الشـــعر بأنه « الكلام الموزون المقفى قصداً » وهذا التعريف يتجه فى التمييز بين الشعر والنثر إلى الشكل العروضى الذى يلتزمه الشعر العربى ، من توالى مقاطع الكلام على طريقة خاصة تتكون منها كميات نغمية تتكرر عدة مرات لتؤدى الإيقاع الموسيقى الذى هو أهم خصائص الشعر .

و « القافية » المأخوذة فى هذا التعريف تشرحها كتب العروض شرحا وافيا ببيان نظامها وشروطها ، وكأنما هى وقفة موسيقية فى نهاية البيت ، يبدأ بعدها التدفق الموسيقى من النغمات والايقاعات التى تصنعها التفاعيل فى البيت الذى يليه .

وتقييد مفهوم الشعر « بالقصد » يبدو أنه من زيادات المتأخرين ، وأن الدافع له دينى لا علمى ، لكيلا يدخل فى الشعر بعض آيات القرآن والأحاديث التى جاءت موزونة عفواً ودون قصد .

فماذا يقول ابن خلدون !!

لم يعجبه هذا التعريف ، فرفضه ، لأنه يتجه للشكل العروضى وحده ، وقد اعتبره — كما سبق بيانه — من لوازم الملكة وليس من عناصرها الأساسية ، وقدم تعريفا بديلا له بقوله :

« الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به(١) .

ومن البين من تأمل هذا التعريف أن مفهوم الشعر عنده يقوم على أركان أربعة هى :

---

(١) المقدمة ٤/١٢٩٥ .

١ — الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف

٢ — المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى

٣ — كل جزء مستقل فى غرضه ومقصده

٤ — الجارى على أساليب العرب المخصوصة به

والعنصر الثانى من مفهومه للشعر هوماقال — ويقول — به علماء العروض قبله وبعده ، والعنصر الأخير يرتبط بفهمه لمسلك أسلوب الشعر عنده وكيفية اكتسابه وتصوره .

والجديد فى هذا التحديد العنصران الأول والثالث .

فوصفه الشعر « بالكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف » وصف جيد بالمفهوم الحديث ، لأن مجرد الوزن والقافية لا يتحقق به مفهوم متكامل للشعر ، وإلا اندرج تحته السرد الغث والكلام التقريرى المباشر ما دام موزونا مقفى ، ولكى يستحق الكلام وصف الشعر لا بد فيه من « البنـــاء بالصور » بتعبيرنا الحالى ، أو « الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف » كما يقول ابن خلدون .

أما تحديده للشعر بأن « يستقل كل جزء منه فى غرضه ومقصده » فقد وضح ما يعنيه من ذلك بقوله « إن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك » وهى فكرة غير جيدة وغير مفيدة ، إذ مقتضاها أن القصيدة مجموعة أجزاء مفرقة الأغراض والمقاصد بحسب كل بيت فيها ، وهذا غريب !! وأغرب منه أن يكون هذا قيدا فى تعريف الشعر وأن يكرره ابن خلدون — وهو من هو فى مكانته وفهمه — فى أكثر من موضع من آرائه حول مفهوم الشعر وملكته ، إذ يقول فى موضع آخر « وينفرد كل بيت منه — الشعر — بإفادته فى تراكيبه ، حتى كأنه كلام

وحده مستقل عما قبله وما بعده ، وإذا أفرد كان تاما فى بابه فى مدح أو تشبيب أو رثاء (١)» .

هذه الفكرة نفسها فتحت بابا واسعا للمتهجمين فى عصرنا الحاضر على الشعر العربى القديم بالقول بأنه شعر مفكك الأوصال متناثر المعانى محطوم الوحدة بل كانت هذه الفكرة نفسها مستندا لأصحاب الشعر الحر وقائليه وسبيلا لمهاجمة الشعر الموزون المقفى كلية .

ولست بصدد مناقشة هذه الفكرة الآن — ويبدو لى أنها غير صحيحة على إطلاقها — فإن الذى أنا بصدده هو تفسير رأى ابن خلدون فى الشعر ، وهو فى هذا التعريف الذى ساقه — الحسن منه وغير الحسن — منطق مع نفسه ، لأنه يشرح صنعة الملكة فقدم ما رآه من مظاهر تلك الصنعة الشعرية فى تلك العناصر الأربعة ، لكنه لم يأخذ فى اعتباره — كما سبق — ما وراء الصنعة من أعماق الشعور وتجربة الشاعر النفسية والعاطفية وبناء قصيدته المتماسك الموحد حول تلك المشاعر والعواطف ، ولو أخذ ابن خلدون هذا الاعتبار فى فهم الشعر ومفهومه عنه لما قدم من عناصر الشعر هذا القيد المعيب .

(٣)

هكذا تصور ابن خلدون ملكة الشعر فى صنعها وصناعتها ، أو فى تكونها فى الذهن ومظهرها فى الشعر ، وقد تناثر حول هذا التصور مجموعة من القضايا المهمة فى حديث الشعر وأسلوبه هى :

١ — شعر الإسلاميين أفضل من شعر الجاهليين

---

(١) المقدمة ٤/١٢٨٩ .

٢ — نظم الشعر للألفاظ لا للمعانى

٣ — المطبوع والمصنوع فى أداء الشعر

والهدف عرض رأيه عن كل هذه القضايا الثلاث مع تفسير هذا الرأى ببيان قيمته بقدر ما يؤدى إليه جهدى واجتهادى وموقفى المتواضع بجانب هذا العملاق الرائد « ابن خلدون »

١ — شعر الاسلاميين أفضل من شعر الجاهليين

المشهور بين الدارسين للغة فى وقتنا الحاضر أن النقاد العرب الأقدمين من رواة الشعر وصيارفته يكاد رأيهم يجتمع على أن شعر الجاهليين أرقى وأقوى من شعر من تأخر عنهم من شعر الإسلاميين والعباسيين سواء من ناحية صحة اللغة أو بلاغتها ، وكان لهذه النظرة تأثيرها البعيد المدى فى مسلك هؤلاء العلماء تجاه الشعر العربى خاصة — واللغة عامة — من حيث الاستشهاد به على القواعد أو من حيث أسلوبه — مما لا مجال هنا لتفصيله .

• من المشهور عن أبى عمرو بن العلاء وقد سئل عن المولدين - هم فى رأيه غير الجاهليين والمخضرمين - ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج وقطعة مسح وقطعة نطع(١)

• قال أبو حاتم : قلت للأصمعى: لجرير والأخطل- يسأل عنهما مع غيرهما- قال : هؤلاء لو كانوا فى الجاهلية كان لهم شأن ، ولا أقول فيهم شيئاً ، لأنهم إسلاميون(٢)

---

(١) العمدة فى صناعة الشعر ونقده جـ ١ ص ٥٦ .

(٢) لجولة الشعراء ص ٢٣ .

• روى المرزبانى قول ابن الأعرابى : إنما أشعار هؤلاء المحدثين — مثل أبى نواس وغيره — مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ، ازداد طيبا(١)

هذه الروايات الثلاث السابقة نماذج لكثير غيرها وردت عن علماء اللغة الأقدمين ، وكانت هذه الآراء نفسها — فى عصرها — هى المعتد بها فى نقد الشعر — وكان فى مجموعه نقدا لغويا — وتدل هذه الآراء على أنهم يفضلون القديم بصورة عامة ، والقديم الجاهلى بصورة خاصة .

أما ابن خلدون فله رأى آخر ، إنه — كما هو شأنه — لايقلد غيره ، وهو فى الوقت نفسه يلتزم نظرته فى شأن الملكات وصناعتها ، وعلى هذين الأساسين جاء رأيه الذى قرر به أن «كلام الإسلاميين فى نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أولئك — الجاهليين — وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً»(٢) فشعر حسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وذى الرمة والأحوص وبشار أرقى وأقوى من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة .

والسبب الذى دعاه إلى اطراح هذا الرأى التقليدى السائر بين المقلدين من تفضيل الجاهليين على غيرهم يعود — كما قلت — إلى حرية عقله من جهة ، والتزامه نظرته فى شأن الملكة من جهة أخرى ، والملكة اللسانية التى نشأ عليها الإســـلاميون تأثرت بأقوى كلام وأبلغه ممثلا فى القرآن والحديث ، فولج — كما يقول — فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبهما نفوسهم ، فارتقت ملكاتهم على ملكات من قبلهم .

---

(١) الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ص ٢٤٦ .

(٢) المقدمة ٤/١٣٠٦ .

هذا رأيه يقرره فى عبارة أخرى تقريراً حاسماً بقوله «كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية فى منظومهم ومنثورهم» فماذا يكون الأمر لو تصورنا أن «أبا عمرو بن العلاء» قد سمع مثل هذه العبارة من ابن خلدون مع ما هو مشهور عنه من التفضيل المطلق لشعر الجاهليين ، لنترك الأمر للقارىء ، ليتخيل هذا المشهد الطريف ما شاء له الخيال !!

٢ ـ نظم الشعر للالفاظ لا للمعانى

شغلت قضية اللفظ والمعنى جانبا مهما من النقد العربى القديم ، فقد انحاز إلى جانب المعنى وحده من يعتد بهم من النقاد العرب كأبى عمر الشيبانى والآمدى وابن سنان الخفاجى ، كما انحاز إلى جانب اللفظ وحده آخرون على رأسهم الجاحظ وقدامة بن جعفر ، وسوى فريق ثالث ـ كبشر بن المعتمر وابن قتيبة ـ فى الأهمية بين كل من اللفظ والمعنى .

وليس من المفيد أن نناقش هذه القضية هنا ، فقد شبعت نقاشا فى القديم والحديث ، كما أنه ليس من المفيد أن نفصل موضع ابن خلدون بين هذين الطرفين ، فقد وضع نفسه وضعا منحازاً تماماً إلى جانب الألفاظ ، وعنوان الفصل السابع والخمسين من مقدمته هو (فصل فى أن صناعة النظم والنثر إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى(١))

لكن المفيد حقا أن حديثه عن هذه القضية جاء تأكيداً تاما لفهمه لملكة الشعر ، كما أنه فى الوقت نفسه تأكيد لما فهمناه نحن عن فهمه — وإليك التوضيح .

---

(١) راجع : المقدمة ٤/١٣٠٢ .

إن ملكة الشعر — فى رأيه — صناعة بحتة شأن كل الملكات ، ويقول هنا « إن الصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر إنما يحاولها فى الألفاظ »

وملكة الشعر — فى نظره — تحصل بحفظ جملة صالحة من كلام العرب شعرا وهذا أمر منسوب إلى اللسان ، ويقول هنا « والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعانى فهى فى الضمائر »

وقد فهمنا عنه أنه لم يأخذ فى اعتباره أمرين فى غاية الأهمية للشاعر هما « الموهبة والوعى » ولو أخذ ذلك فى اعتباره لاهتم بالمعانى والمشاعر ، وهو هنا يؤكد هذا الفهم عنه بقوله « والمعانى موجودة عند كل واحد وفى طلوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا تحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة »

ثم يدلل على رأيه بتجسيد الموضوع فى صورة حسية ، صورة « الأوانى » التى يغترف بها الماء ، فهى ذهب أو فضة أو صدف أو زجاج أو خزف والماء واحد .

لكن هذا التمثيل فى الحقيقة لا يشهد له ، لأن الماء قد يكون ملحا أجاجا وقد يكون آسنا وقد يكون عذبا ، قد يكون رائقا وقد يكون كدرا ، فكما أن الأوانى تختلف كذلك يختلف الماء ، وكما أن الألفاظ تختلف ، فالمعانى أيضا تختلف ، وكل منهما لا يقل أهمية عن الآخر ، لكن ابن خلدون — وقد جعل الشعر صناعة مقننة تكتسب — سار فى الطريق إلى مداه مع أن قضية اللفظ وحده والانحياز له خاسرة بمقياس الشعر الحقيقى والفكر الناضج كليهما ، ورحم الله أحد نقادنا القدامى حيث قال : « وقد رأيت جماعة من متخلفى هذه الصناعة يجعلون همهم مقصوراً على الألفاظ التى لا حاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها ، وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع — على أى وجه كان من الغثاثة والبرد — يعتقد

أنه قد أتى بأمر عظيم ، ولا يشك فى أنه صار كاتبا مفلقا ... فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدى الجهال الأغمار »

وسواء أكان القلم فى أيدى الجهال الأغمار أو أدباء الصنعة والإنشاء ، فإن اعتبار اللفظ وحده فى الشعر قد ينزلق به إلى « بهلوانية » فجة ونظم غث وبراعة لغوية قوامها التفخيم والتهويل والتشدق بكلام موزون مقفى لا فائدة فيه ولا معنى وراءه ولا نتيجة له .

٣ — المطبوع والمصنوع فى أداء الشعر

يتدرج أسلوب الشعر أو أداء الشعر — فى رأى ابن خلدون — تحت وصفين هما : المطبوع والمصنوع .

ولبيان معنى إطلاق هذين الوصفين على أداء الشعر ذكر ثلاثة مصطلحات هى (إفادة المعنى — كمال الإفادة — التحسين والتزيين)

لقد عاود الحديث عن المصطلحين الأولين هنا بعد ما ذكرهما من قبل فى حديثه عن « الصورة الذهنية » لصنعة الملكة » فقرر ثانية أن « إفادة أصل المعنى » يكون بصحة اللغة واستيفاء شروطها وأحكامها التى هى جل قوانين العربية فى إسناد التراكيب — ويحيط بهذا الإسناد معان خارجة عن أصله تستفاد من التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والإضمار والإظهار — أبحاث علم المعانى — وكذلك ما يستفاد من انتقال الذهن بين المعـــانى بالدلالات المختلفة للتشبيه والاستعارة والكناية - أبحاث علم البيان - وهذا كله يحقق ما أسماه « كمال الإفادة »

وإذا لم يتحقق للكلام « إفادة المعنى » فهو موات وهمل ولا عبرة به وإذا لم يتحقق له « كمال الإفادة » كان مقصرا عن مقتضيات البلاغة ، والبلاغة أصل الكلام العربى وسجيته وروحه وطبيعته .

أما « التحسين أو التزيين » فيكون بعد تحقق أصل المعنى وكماله ، ويتحقق بضروب السجع والجناس والمطابقة والموازنة والتورية وغير ذلك من المحسنات مما أطلق عليه المتأخرون « البديع »

فماذا يقصد ابن خلدون إذن من المطبوع والمصنوع فى أداء الشعر ؟ !

قال : اعلم أنهم إذا قالوا « الكلام المطبوع » فإنهم يعنون به الكلام الذى كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود منه .

أما «المصنوع» فهى ضروب التحسين والتزيين التى تأتى بعد كمال الإفادة .

فقد يكون الشعر مطبوعا خاليـــا من الصنعة وهو شعر جميل رائق عذب وقد يكون مطبوعا تضاف إليه الصنعة التى تجيئه عفوا ، فتزيده بهاء وحسنا ورونقا

لكن ابن خلدون — بعد ذلك — يقف فى وجه الصنعة منبهـا على المدى الذى يجب أن تبلغه فى الكلام ، ومحذرا من تجاوز الحد فيهـا بحيث تجور على أصل المعنى وكماله .

فهو يشترط أولا أن « تقع من غير تكلف » لأن التكلف والمعـــاناة فيها يصرف جهد صاحبها إليها ، ويؤدى به إلى الغفلة عن مقصوده الأصلى من كلامه.

كما يشترط ثانيا « الإقلال من الصنعة » فالإكثار منها عيب شائن ، ويؤدى إلى القبح الذى لا حسن فيه .

بل يتقدم خطوة أخرى ، فيرى أن أسالب الصنعة من ضروب « التحسين والتزيين » لا تصح فى النثر ولا تقبل فيه ، فإن أساسه الترسل والطلاقة والسلاسة، فإذا داخلته الصنعة بالسجع والتقفية والتورية والجناس وغير ذلك من ضروبها أدى به الى القصور والضعف والتهافت .

بل إنه يرى أن أساليب الشعر عموما من الأوصاف والأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات لا تناسب النثر أصلا ، وأن من يتعلقون بذلك قاصرون عن الكلام المرسل والتصرف فى وجوهه وطرقه ، فيلجأون لوجوه الزينة السطحية يجبرون بها هذا القصور !! وليته قال : يجبرون بها الخواء الفكرى والإفلاس الذهنى ، حيث يحاولون تغطية ذلك كله «بالفهلوة» الفارغة ، والتلاعب بالألفاظ ، ويدارون ضحالة الفكر والشعور تحت ستار الأصباغ الصارخة والمساحيق الزاعقة ، وكلاهما لا غناء فيه عن الجمال الأصيل وبراءته وأسره .

وبعد

فقد قدم ابن خلدون رأيه عن الشعر وقضاياه كما هداه إليه فهمه والتزامه للملكات وصنعتها ، وهو — بهذه الصفة — رأى قوى آسر محكم ، لكن الشعر لا يدرس فى إطار الحدود والأسر والصنعة فقط ، بل له جوانب أخرى خاصة به أهمها تعبيره عن هموم صاحبه ومجتمعه ، وما يحمله من نور الموهبة وطاقات الشعور الموارة فى النفس الإنسانية الشاعرة ، وهى متميزة متفردة متدفقة بلا حد ولا صنعة .

مراجع ورد ذكرها فى الهامش

١ — مقدمة ابن خلدون ح ٤	ابن خلدون
٢ — وفيات الأعيان ج ١	ابن خلكان
٣ — مراتب النحويين	لأبى الطيب اللغوى
٤ — إنباه الرواة ج ٣	القفطى
٥ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده ج ١	ابن رشيق
٦ — فحولة الشعراء	الأصمعى
٧ — الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء	المرزبانى

قرائن الكلام وقوانين الإعراب في فهم ابن خلدون

(١)

يردد ابن خلدون في حديثه عن اللغة مصطلحات تكاد تكون من لوازمه الخاصة به هي :

- لغة مضر أو اللسان المضري
- لغة العرب لهذا العهد أو لسان العرب لهذا العهد
- لغة أهل الحضر والأمصار أو عرف التخاطب في الأمصار
- أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

وينبغي ابتداء تحديد فهمه وفهمنا لهذه المصطلحات الأربعة لمستويات اللغة ثم معرفة مقصده من هذين التعبيرين « قوانين الإعراب » و « قرائن الكلام » بالتطبيق على مستويات اللغة الأربعة السابق ذكرها تفصيلا — ليتأتى في النهاية تأصيل هذا الموضوع في الدراسات اللغوية الحديثة .

أما « لغة مضر » فإنه يقصد بها الفصحى المعربة التي وجدت بين العرب الخلص قبل أن تفسد بمخاطبة الأجانب والمولدين ، وهي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، واحتفى النحاة بدراستها واستنباط قواعدهم منها ؛ فهي منسوبة إلى

« مضر » الجد الاعلى للعرب ويطلق عليها أحيانا « لسان مضر » أو « اللسان المضرى »

أما « لغة العرب لهذا العهد » فيقصد بها اللغة العربية الفصحى التى كانت تستعمل فى عهده هو — القرن الثامن الهجرى — وهى امتداد للفصحى القديمة — لغة مضر — لكن لحقها التغيير فى كثير من مظاهرها فى البنية والإعراب .

و « لغة أهل الحضر والأمصار » يقصد بها لغات التخاطب العامية التى تختلف من بيئة لأخرى ، فهى فى المشرق وأمصاره عموما تخالف المغرب وأمصاره عموما ، كما تختلف فى هذين عن الأندلس وأمصاره ، كما أنها تختلف فى كل من المشرق والمغرب والأندلس فيما بينها حسب الأمصار والبيئات ، وأطلق عليها جميعا « عرف التخاطب فى الأمصار » فى مقابل النوعين الآخرين « لغة مضر » و « لغة العرب لهذا العهد » — وهذه اللغات قد لحقها أيضا التغيير — كما قال — فى الإعراب والتصاريف والاصطلاح .

أما « أشعار العرب لعهده » فهى الأشعار التى كانت شائعة فى الأمصار لعهده ، ولم يلتزم الكثير منها « لغة مضر » بل استخدمت النوعين الآخرين «لغة العرب لعهده ولغات التخاطب فى الأمصار » فكان الشعراء يقرضون الشعر — كما يقول — فى سائر الأعاريض على ما كان عليه السلف المستعربون، وتذكر منه المطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه ، وقد سمى أهل المغرب هذه القصائد « الأصمعيات » نسبة إلى «الأصمعى» راوية الشعر، وسماها أهل المشرق « البدوى » نسبة للبادية ، وسموا ما تغنوا به منها باسم « الحورانى » نسبة إلى منازل العرب البادية فى أطراف الشام والعراق .

فلندخل إذن لموضوعنا « قرائن الكلام وقوانين الإعراب » الذى تعرض له

ابن خلدون فى مواضع ثلاثة من « مقدمته » وهو يتحدث عن « لغة العرب لهذا العهد » فى الفصل الثامن والأربعين — وتعرض له ثانيا وهو يتحدث عن « لغة أهل الحضر والأمصار » فى الفصل التاسع والأربعين — وتعرض له مرة ثالثة فى الفصل الحادى والستين وهو يتحدث عن « أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد(١) » وسنعرض لجوانب رأيه فى هذا الموضوع المثير الخطير تفصيلا من خلال ما ذكره عن هذه المستويات اللغوية السابقة كلها .

(٢)

الاعراب وقوانينه فى لغة مضر

يرى ابن خلدون أن الإعراب وجد فى اللسان المضرى ، وأنه كان يلتزم — كما يقول — طريقة واحدة ومهيعا معروفا — لكنه يقرر إلى جوار ذلك ما يلى :

إن هذا الإعراب «بعض من أحكام اللسان» وتفسير عبارته — كما فهمت — أن الإعراب يمثل ناحية واحدة فى النطق العربى الصحيح ، وأن هذا النطق له جوانب أخرى لا تقل أهمية عن حركات الإعراب فى إفادة المعنى ، وقد ذكر هو نفسه منها — كما سيأتى — ما أسماه « بساط الحال » وهى الكيفيات والأحوال فى تراكيب الألفاظ وتأليفها كالترتيب والحذف وغيرهما ، ورتب على هذا المعنى السابق ما سيأتى بعد مفصلا فى رأيه عن « لغة العرب فى عهده » و « لغات التخاطب »

كما يقرر أمرا آخر مشهورا جدا فى تاريخ العربية عن نشأة النحو وتدوينه

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٤ صفحات ١٢٧٠ — ١٢٧٤ — ١٣١٤ على التوالى .

وهو الخوف على القرآن والحديث من اللحن والفساد بمخالطة الأعاجم ، وأن ذلك قد دفع العلماء إلى تدوين أحكام الإعراب حفاظا على القرآن والسنة ، وهما — بتعبيره — أصلا الدين والملة ، فوضعت الأحكام والقوانين واستنبطت المقاييس ، وتحصل لدينا علم ذو فصول وأبواب ومقدمات هو «علم النحو» الخاص بلسان مضر .

لكن ابن خلدون يرتب على ذلك نتيجة خطيرة جداً تضمنتها العبارتان الآتيتان :

• فأصبح — علم النحو — فنا محفوظا وعلما مكتوبا وسلما إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافيا .

• إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة — كما قلنـــاه — حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء ، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على ذلك ويدعونا إليه .

فماذا يقصد الرجل — ياترى — بكل ذلك ؟؟

لنرتب ما فهمته من أفكاره هكذا : الإعراب كان فى لغة مضر — بتحديدها السابق — ونزل القرآن والحديث بهذه اللغة — ودفع الخوف على القرآن والحديث من الفساد لوضع النحو أو صناعة العربية من أجل الحفاظ عليهما — وصارت هذه الصناعة سلما لها — وهى تؤدى هذه المهمة بهذا الفهم — لكنا الآن — فى عهد ابن خلدون — ليس عندنا تلك الحاجة التى تحتم علينا التزام الإعراب فى النطق ولا البحث عن استقرائه فى الكلام — وإذن فليبق هذا الإعراب مقتصرا على مورده وحاجته ، وهى حاجة دينية فى المقام الأول .

هذا كلام خطير دون شك قد يتخذه الدارسون المجددون — بصرف النظر عن المغرضين وأهل الأهواء — مستندا لدعاواهم الجريئة ، إذ يرون أن اللغة

العربية الآن ليست هى اللغة المضرية قديما ، ويجب أن يعترف لها بالتطور والتغيير ومما لحقه التغيير من مظاهرها الإعراب الذى كاد ينقرض فى استعمال العربية الآن ـ كما كان الأمر فى عهد ابن خلدون ـ ولا حاجة بنا إليه فى النطق ، وإنما حاجتنا إليه فقط للقرآن والحديث .

لكن الغيورون المحافظون على اللغة الفصحى يتخذون هذا الرأى نفسه مستندا لقضيتهم ، إذ يرون أن اللغة الفصحى ما زالت هى لغة مضر ـ لغة القرآن والحديث ـ فاللغة الفصحى النموذجية هى ما يماثل هذه النصوص الدينية ، وهذه النصوص الدينية حملت الإعراب ، واستقرأته صنعة العربية ورجال النحو ، فيجب أيضا التزام الإعراب فى الفصحى التى تماثل وتمثل نصوص القرآن والحديث ، فهذه ضرورة دينية ولغوية معا .

الإعراب وقرائن الكلام فى لغة العرب لعهد ابن خلدون

عنوان الفصل الثامن والأربعين فى المقدمة هو (فصل فى أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير) وعلق محقق المقدمة ـ الدكتور وافى ـ فى هامش الصفحة على ذلك بقوله : كان الأولى أن يعنون هذا الفصل « فصل فى الرد على من زعم أن لغة العرب ... إلخ » لأن موضوع هذا الفصل ليس بيانا لهذه الدعوى وتأييداً لها ، بل هو رد عليها . انتهى

والحق مع ابن خلدون ، فعنوانه مطابق تماما لما أراد وقرر ، فهو يقصد تماما هذا العنوان ، وبدقة أكثر : يقصد فى هذا العنوان عبارة « لغة مستقلة » أما ما أورده من ردود ومساءلات فى تقرير رأيه ، فإنه قصد بها توضيح هذا الرأى والإبانة عنه بطريقة إيراد الاحتمالات والرد عليها .

وعلى كل ، فإنه كشف عن لغة العرب لعهده من ناحيتين :

(أ) ناحية الألفاظ والمعانى والأسلوب

(ب) ناحية فقدان الإعراب والاستعاضة بقرائن الكلام

وبالنسبة للجانب الأول رأى أن اللغة العربية لعهده تستعمل الألفـــاظ الصحيحة فى معانيها الموضوعة لها ، وأنها تؤدى الأغراض والمقاصد بين المتكلمين والسامعين ، وأن أساليبها من النظم والنثر تؤدى بها مقتضيات الأحوال على متطلبات الذوق والبلاغة ، وهى فى كل ذلك مماثلة للسان المضرى الذى كان للعرب من قبل ، يقول :

● نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل فى موضوعاتها الأولى ، والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود فى كلامهم لهذا العهد ، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة فى مخاطباتهم (١) .

أما الناحية الثانية ـ وهم الأهى ـ فإنه يقرر أن الإعراب قد فقد من اللغة العربية فى عهده ، وأن فقدان هذا الإعراب لم يهدم أداء اللغة لمعناها الصحيح البليغ بل إنه يمكن أن يعتاض عنه بما أسماه « قرائن الكلام » ـ فلنستمع لابن خلدون فى هذا النص :

● لم يفقد منها ـ لغة هذا العهد ـ إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد ...

لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعانى بأعيانها ، ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمى « بساط الحال » محتاجا إلى ما يدل عليه ، وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه ، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال فى تأدية المقصود ، لأنها صفاته ،

---

(١) المقدمة ٤ / ١٢٧١

وتلك الأحوال فى جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع ، وأما فى اللسان العربى ، فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات فى تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب ، وقد يدل عليهـــا بالحروف غير المستقلة(١) .

ويفهم من هذه العبارة السابقة نصا أمور :

أولا : فقدت اللغة العربية فى عهده دلالة الحركات على تمييز الأبواب النحوية أو بعبارة أخرى : لم يعد للعلامة الإعرابية فى أداء المعنى القيمة التى تفصلها كتب النحو تفصيلا ، وتعطيها الأهمية والمثالة فى نطق اللغة والحكم بصحتها أو فسادها.

ثانيا : اعتاضت اللغة عنها بما أسماه «القرائن الدالة على خصوصيات المقاصد» وهذه لمحة ذكية ، لكنها مع ذلك موجزة مختصرة .

ثالثا : تحدث بعد ذلك عما تقتضيه الأحوال أو ما أسماه « بساط الحال » الذى يحيط بالمعنى لتأديته بصفاته كاملة - وإلى هنا والأمر عادى بالنسبة له .

لكن غير العـادى فى حديثه أن يقرر أن أداء « بساط الحال » يكون فى اللسان العربى بأحوال وكيفيات فى تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب أو الحروف غير المستقلة ، فيخطو بنا خطوة نحو وضوح أكثر ، فالقرائن هى ما فى اللسان العربى من الكيفيات فى تراكيب الألفاظ وتأليفها ، وقد قدم لها النماذج الآتية مع مقابلها بالمصطلح الحديث .

- التقديم والتأخير - وهى قرينة الرتبة
- الحذف - مظهر من قرينة التضام

---

(١) المقدمة ٤ / ١٢٧٠

• حركة الإعراب ـ قرينة العلامة الإعرابية

• الحروف غير المستقلة ـ قرينة الأداة

ويجب أن نتذكر أن ابن خلدون يربط فى أداء المعنى بين ما سماه « أصل المعنى » و « كمال المعنى » وأنهما معا يتكاملان فى إفادة المدلول المقصود من الكلام لأنه ـ كما قال ـ عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط ، بل يقصد المتكلم به أن يفيد سامعه ما فى ضميره إفادة تامة ويدل به عليه دلالة وثيقة ، وهذا الربط فى أداء الإفادة يسمح لدارسه أن يضع تلك الكيفيات التى ذكرها عن أداء المعنى لتحقيق مقتضى الحال فى دراسة اللغة ، ويحق له أن يفهم أيضا أن الجزء الأخير من عبارته السابقة مرتبط بجزئها الأول عن القرائن ، فإفادة المدلول المقصود من الكلام ـ المعنى ـ تتحقق بأداء الألفاظ لمعانيها وبتحقيق « بساط الحال » بكيفيات الجمل وتأليفها أو بعبارة أقرب : بالقرائن كلها ومنها الإعراب لا بالإعراب وحده .

وقد أكد هذا الفهم مرة أخرى فى حديثه عن الموضوع نفسه ، إذ يقول :

• ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه نتناض عن الحركات الإعرابية فى دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه ، فتكون لها قوانين تخصها ، ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مضر ، فليست اللغات وملكاتها مجانا (١) .

هكذا قرر ابن خلدون فكرته ، وهى فى عبارة قصيرة (لا يضر فقدان الإعراب إذ تغنى عنه القرائن)وهى فكرة شديدة الجرأة ، لم يجرؤ أحد قبله أو بعده من علمائنا المتقدمين والمتأخرين على القول بها بهذه الصورة المتكاملة ـ فلنؤكد فهمها فى حديثه عن المستوى التالى للغة « لغات التخاطب »

---

(١) المقدمة ٤ / ١٢٧٢

الإعراب وعرف التخاطب فى الأمصار

لغة أهل الحضر فى الأمصار أو عرف التخاطب فى الأمصار هى المستوى الثالث الذى تحدث عنه ـ وكأنما يتحدث عنا الآن ـ فوصفها بما يلى :

إنها لغة قائمة بنفسها مختلفة عن اللسان المضرى القديم ومختلفة أيضا عن لسان العرب ـ أو لسان الجيل ـ لعهد ابن خلدون ، ويدل على ذلك ما فيها من التغاير الذى يصفه النحاة « باللحن » وأيضا استعمالها « لاصطلاحات » خاصة بها ، بل إنها لتختلف فيما بينها من مصر لآخر ، فهى فى المغرب وأفريقية غيرها فى الأندلس والمشرق ـ ولو أنعمنا النظر قليلا ونقلنا هذه النظرة إلى وقتنا الحاضر ، لوجدنا ما يقرب حديثه هذا من فهمنا فى لهجات الأقطار العربية الآن ، فتلك اللهجات تختلف فى العراق عنها فى مصر ، وتختلف فى كليها عن المغرب وغيره ، ومجالات الاختلاف هو هذان المظهران أنفسهما اللذان ذكرها ابن خلدون « اللحن والاصطلاحات الخاصة » .

ويعاود الرجل مرة أخرى هنا الحديث عن فهمه للملكة وتعلمها ليقدم تفسيرا مؤيداً لرأيه عن استقلال لغات الأمصار ، وليسلك هذا الرأى فى سلك نهجه كله ونظرته المتكاملة عن اللغة .

إن البعد عن اللسان العربى يكون بمخالطة العجمة ، ومن خالط العجم أكثر كانت لغته أبعد عن اللسان العربى ، وأهل الأمصار فى المشرق والمغرب ـ لعهده ـ ازداد اختلاطهم بالعجم ، فى إفريقية والمغرب بالبرابرة ، وفى الأندلس بالجلالقة والإفرنجة ، وفى المشرق بالترك والفرس « والملكة إنما تحصل بالتعليم .. وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التى للعرب ومن الملكة الثانية التى للعجم ، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه ، يبعدون عن الملكة الأولى(١) .

---

(١) المقدمة ٤ / ١٢٧٥

وهذا هو السبب فيما رآه من استقلال لغات الأمصار وبعدها عن اللسان العربى . . نفس نظرته .

لكنه خلال ذلك يقدم رأيه عن لغات الأمصار وفقدان الإعراب فيها بقوله:

• وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصودة والإبانة عما فى نفسه، وهذا معنى اللسان واللغة — وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم ؛ كما قلناه فى لغة العرب لهذا العهد(١) .

أجل « تأدية المقصود والإبانة عما فى النفس » هذه مهمة اللغة — أى لغة — ومضمون هذا الفهم هو ما يحدد به اللغويون المحدثون معنى اللغة ، فهى — فى رأيهم — مواضعات عرفية يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .

ثم هذه اللفتة عن «الإعراب» الذى فقد من لغات الأمصار لعهده — كما فقد من لهجاتنا الآن — وهذا الفقد ليس بضائر لها ما دامت تؤدى مهمتها فى الإفهام والفهم وتوضيح المراد ، وقد التزم ابن خلدون فى رأيه موقف عالم الاجتماع الذى يصف ما أمامه من مظاهر اجتماعية — ومنها اللغة — فلم ينزلق إلى المفاضلة والاستحسان والاستهجان ، بل قدم الموازنة بين هذا المستوى — لغات الأمصار — وغيره دون تفضيل ، ليوضح مدى تمايز — لا امتياز — لغات الأمصار عن غيرها ، فبين التغاير فيها من جهات ثلاث يطلق عليها الدارسون (اللحن — اختلاف المصطلحات الخاصة — فقدان الإعراب) ومع ذلك فهى لغات يتفاهم بها أهلها ، وقد فرضت استعمالها على الألسنة ، وحققت الصلات الاجتماعية بين الناس فى الأمصار .

ربما كان هذا الفهم — وبخاصة ما قيل عن الإعراب — لدى الدارسين

---

(١) السابق ١٢٧٤

المحافظين للغة غير موفق ولاصواب ، لكنه بالفهم اللغوى الحديث وموقفه من اللغة ومستوياتها منتهى الصواب والتوفيق .

الإعراب وقرائن الكلام فى الشعر لعهد ابن خلدون

« الشعر لا يختص باللسان العربى فقط » و « الشعر موجود بالطبع فى أهل كل لسان » و « لم يهجر الشعر بفقدان لغة مضر » حول هذه العبارات الثلاث السابقة أدار ابن خلدون حديثه عن الشعر فى الفصل الحادى والستين من مقدمته.

فالشعر وجد فى لغة العرب كما وجد فى لغات العجم ، فلليونان شعراؤهم وللفرس شعراؤهم كذلك .

والشعر موجود بالطبع فى كل لسان ، لأن الموازين — كما يقول — على نسبة واحدة فى أعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة فى طباع البشر .

وقد كان للعرب شعراء فى لغة مضر المعربة التى استقرأها النحاة ، ووضعوا على أساسها قوانين الإعراب ، ثم فسدت هذه اللغة بمخالطة الأعاجم — كما هو رأيه — وخرج منها ما أسماه لغة العرب لعهده التى خالفت لغة مضر فى الإعراب وكثير من الموضوعات اللغوية وبنية الكلمات ، وأيضا هناك لغات الأمصار التى فقدت الإعراب جملة ، واختلفت اصطلاحاتها فيما بينها .

ومع ذلك لم يهجر الشعر ، فالعرب المستعجمون — كما سماهم — يقرضون الشعر أيضاً مثل أسلافهم من العرب المستعربين فى سائر الأعاريض وفى سائر الأغراض والفنون ، ويجىء شعرهم بلغتهم التى خالفت لغة مضر — كما سبق القول — فى الإعراب وبنية الكلمات .

هذا الشعر أطلق عليه أهل المغرب « الأصمعيات » وأطلق عليه أهل المشرق « البدوى » وسموا ما يتغنون به منه « الحورانى » — كما سبق تفصيل ذلك .

ومن هذا الشعر هذه الأبيات لا مرأة من « عرب نمر » بنواحى « حوران » قتل زوجها ، فبعثت إلى أحلافه من «قيس » لطلب ثأره :

تقول فتاة الحى أم سلامه ... بعين أراع الله من لارثى لها
تبيت بطول الليل ما تألف الكرى ... موجعة ، كان الشقا فى مجالها
على ما جرى فى دارها وبوعيالها ... بلحظة عين البين غير حالها
وتأوى شهاب الدين ياقيس كلبهم ... ونمتوعن اخد التار ماذا مقالها
أنا قلت إذ ورد الكتاب يسرنى ... ويبرد من نيران قلبى ذبالها
أياشين تسريح الذوائب واللحى ... وبيض العذارى ما حميتو جمالها

فهذا نموذج من هذا الشعر ، وبتأمله يتضح أنه يمكن نسبته إلى بحر الطويل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن) إذا نطقت كلماته معربة ، لكن يبدو أنه لم يكن ينطق معربا ، بل كانت كلماته تنطق ساكنة ، بدليل أن كلمات القوافى الست (لها — مجالها — حالها — مقالها — ذبالها — جمالها) لا يتفق فيها حرف اللام إلا إذا سكن ، ولو خضع للإعراب لخرج عن مقتضى العروض .

وإذا علمنا أن هذه الأبيات مما يطلق عليه (الحورانى) الذى يغنى ، فإن تقريب نطقها يكون بدفعها إلى أحد شعراء « الربابة » الجوالين ، ومن المؤكد أنه سيغنيها على ربابته دون إعراب .

وظاهرة أخرى فى تلك الأبيات هى الكلمات التى خالفت الفصحى فى أبنيتها (بوعيالها - نمتو - أخد - التار - حميتو) وهذا يؤكد ماسبق قوله من أن أشعار العرب استخدمت لغة هذا العهد غير المعربة مع التغيير فى بنية الكلمات فما الرأى فى هذا اللون من الشعر ؟ !

يقدم ابن خلدون لرأيه بأن المشتغلين بعلم اللسان - النحو والبلاغة - يرفضون هذا الشعر ، بل يستنكرونه ، إذ هو مستهجن مرذول فاقد الإعراب — لكن لابن خلدون رأى مخالف لذلك يقرره فى جرأة بقوله :

« فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة ، فإذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر صحت الدلالة ، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال ، صحت البلاغة ، ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك ، وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب (١) .

فالدلالة تصح بالاصطلاح والعرف ، والبلاغة تتم بالمطابقة لمقتضى الحال ، والكلام الموقوف الآخر يفيد المقصود منه من صحة الدلالة وكمالها ، وحركات الاعراب يستغنى عنها بالقرائن .

تلك نظرة ابن خلدون ونهجه ، ولم ينس أن يورد خلال ذلك رأى المشتغلين باللسان من النحاة — وقوافلهم ممتدة حتى وقتنا الحاضر — فذكر معارضتهم لكل رأى جديد يقال ، ثم أوجعهم تأنيبا وشتما ، فوصفهم بالخرفشة وقصور المدارك وتشيع الطباع وآفة الفطرة والنظر !!

هل بقى ما يقال ؟؟ نعم ، بقى شىء مهم يقال ، هو نقل تلك اللمحة الذكية المختصرة عن « قرائن الكلام » إلى تأصيلها وتفصيلها فى الدراسات اللغوية الحديثة .

(٣)

فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٧٣ صدر بالقاهرة كتاب بعنوان (اللغة العربية - معناها ومبناها) من تأليف الدكتور تمام حسان ، وجاء فى تقديمه للكتاب قوله « والغاية التى أسعى وراءها بهذا البحث أن ألقى ضوءا جديداً

---

(١) المقدمة ٤/ ١٣١٦ .

كاشفا على التراث اللغوى العربى كله منبعثا من المنهج الوصفى فى دراسة اللغة ، وهذا التطبيق الجديد للنظرة الوصفية فى هذا الكتاب يعتبر - حتى مع التحلى بما ينبغى لى من التواضع - أجرأ محاولة شاملة لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية تجرى بعد سيبويه وعبد القاهر »(١)

والكتاب بحق نتيجة معايشة طويلة للتراث اللغوى العربى وتفكير عميق فى خيوطه ونسيجه وفى تياراته واتجاهاته ، لتصنيفها على أساس جديد هى ما أطلق عليه « المعانى والمبانى والعلامات »

والمعانى : فى الأصوات والصرف والنحو معان وظيفية تؤديها المبانى التى تشتمل عليهـــا وتنبنى منها هذه العلوم ، فى مقابل المعنى المعجمى الذى تدل عليه الكلمة المفردة ، والمعنى الدلالى الذى يدل عليه المقام لا المقال .

والمبانى : هى تجريد لغوى غير منطوق ولا مكتوب ، يعبر به عن المعانى ، وهو جزء من دراسة اللغة ، فهى رموز تستخدم فى نظام اللغة لمعرفة المعانى والدلالة عليها ، وتتحقق فعلا فى العلامة التى فى الكلام المنطوق والمكتوب .

والعلامات : هى ما يتحقق فى الكلام المنطوق والمكتوب فعلا من تحقق المبنى فيه بعلامة خاصة ، ويكون للمبنى الواحد علامات متعددة ، واحدة منها هى النطق .

وقد قام المؤلف بتطبيق نظريته بعد شرحها فى الفصل الأول على الأصوات والنظام الصوتى والنظام الصرفى والنظام النحوى والمعجم والدلالة .

---

(١) اللغة العربية - معناها ومبناها ص ١٠

وليس من شأنى هنا دراسة هذا الكتاب وتحليله كله ـ فلذلك موضع آخر ـ لكن المهم هنا ما جاء فى هذا الكتاب مما يتعلق بهذا البحث عن (قرائن الكلام وقوانين الإعراب) إذ قدم المؤلف فى الفصل الخامس من كتابه نظرية متكاملة عن « القرائن النحوية » جعل منها « هندسة جديدة » لفهم النحو العربى كله فى إطار هذا المنهج المحكم الدقيق .

وسأعرض ـ باختصار شديد ـ فكرته ، لنتبين بعد ذلك مدى الصلة بينها وبين ما سبق فهمه عن هذا الموضوع نفسه فى رأى ابن خلدون .

بدأ بوضع الأسس التى يبنى عليها النظام النحوى للغة العربية للفصحى وهى:

١ ــ المعانى النحوية العامة (كالنفى والاستفهام والشرط الخ)

٢ ــ المعانى النحوية الخاصة ، أو معانى الأبواب النحوية (كالفاعلية والمفعولية الخ ..)

٣ ــ المعانى التى تربط بين المعانى الخاصة حتى تكون صالحة لأداء المراد منها عند تركيبها (القرائن المعنوية)

٤ ــ ما تقدمه الأصوات والصرف للنحو من مبان صوتية أو صرفية كالحركات والحروف ومبانى التصريف (القرائن اللفظية)

٥ ــ القيم الخلافية أو المقابلات بين أحد أفراد عنصر مما سبق وبقية أفراده .

وعلى هذه الأسس أقام المؤلف نظريته مما أسماه (قرائن التعليق) وتنقسم إلى نوعين :

• قرائن معنوية ، هى : الإسناد ــ التخصيص ــ النسبة ــ التبعية المخالفة .

• قرائن لفظية ، هى : العلامة الإعرابية ــ الرتبة ــ الصيغة ــ المطابقة الربط ــ التضام ــ الأداة ــ النغمة .

وشرح فيما يقرب من سبعين صفحة كل واحدة من هذه القرائن شرحاً ضافيا ، مبينا دور كل منها فى النظام النحوى للغة العربية ، وشارحا ما تحتها من قرائن فرعية ؛ مما يستحق حديثا مستقلا ليس هنا مجاله .

لكن المهم فى هذا البحث الإشارة إلى وجوه الاتفاق والاختلاف بين نظرة العلامة ابن خلدون ومنهج اللغوى العربى المعاصر الدكتور تمام حسان عن « القرائن وقوانين الاعراب »

أولا : أنهما توافقا فى التسمية « القرائن » فهى عند ابن خلدون « قرائن الكلام » وعند الدكتور تمام حسان « قرائن التعليق » لفظية معنوية .

جاء فى القاموس : القرين كالمقارن ، جمعه قرناء . المصاحب ، وبهاء « قرينة » جمعه « قرائن » فكل واحدة من هذه القرائن تصحب الأخرى لتوضيح المقصود من الكلام أو لبيان العلائق بين أجزائه .

ثانيا : أكد ابن خلدون أكثر من مرة أن هذه القرائن قد تغنى عن الإعراب ، وأن الحركة الإعرابية واحدة منها فقط ، فيتضح المقصود من الكلام بدون حركة الإعراب ، وجاء هذا المعنى نفسه فى كتاب (اللغة العربية ـ معانيها ومبانيها) بعد شرح القرائن تفصيلا تحت عنوان « القرائن تغنى عن العوامل » قال المؤلف :

• بعد أن بينت طبيعة القرائن المقالية معنوية كانت أو لفظية فى دلالتها على المعنى الوظيفى النحوى ، أحب أن أضيف إليها كلمة أخرى تتصل بإغناء فهم القرائن المقالية عن فكرة العامل النحوى الذى قال به النحاة ، لقد اتجه

النحاة بقولهم بالعامل النحوى إلى إيضاح قرينة لفظية واحدة هى « قرينة الإعراب » أو « العلامة الإعرابية » فجاء قولهم بالعامل لتفسير هذه العلامات بحسب المواقع فى الجملة فكانت الحركات بمفردها قاصرة عن تفسير المعانى النحوية(١) .

ثالثا : قدم ابن خلدون رأيه فى إطار نظرته الاجتماعية للغة على أنها «ملكة» تكتسب بالتعليم والمران والدربة ، وما دامت هذه الملكة قد تحققت فى مستوى اللغة لعهده أو فى عرف التخاطب فى الأمصار ، فإنها تكون مفهمة صحيحة بليغة بدون الإعراب ، إذ فيها من القرائن ما يغنى عنه .

وقدم الدكتور تمام رأيه فى إطار « المعنى والمبنى » وهى نظريته التى أقام عليها كتابه كله لدراسة الفصحى ، وكانت القرائن لبيان النظام النحوى فيها فقد اختلفت الجهة بين الاثنين — كما يقول أصحاب المنطق — لكن جاءت النتيجة واحدة لهما .

إن هذه اللمحة الذكية المركزة استحالات فى رأى العالم اللغوى المعاصر بناء شاهقا منسقا ، متين الأساس ، محكم التنظيم ، رائع الساحات والحجرات .

ويبقى سؤال لا بد منه هو : هل تأثر الأخير بالأول فى جوهر الموضوع وفكرته !! لاأدى ، فليس فى كتابه ـ اللغة العربية ـ أى إشارة لذلك ، بل كانت دهشته بالغة حين أطلعته ـ وهو أستاذى ـ على ماوقعت عليه من فكرة «القرائن» فى مقدمة ابن خلدون ، ودهشتنا نحن أبلغ من هذا الاتفاق المحض فى جوهر الفكرة وتسميتها بين هذين العالمين الجليلين .. اللذين فصلت بينهما القرون والآماد ، وجمعتهما العبقرية النفاذة ، والمنهج الملتزم .

---

(١) اللغة العربية ـ معناها ومبناها ص ٢٣١ .